ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يُكَذِّبَ سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أى أن الله أعلمنى لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمنى أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوَعجبتم » وكان من الممكن أن يقول :« أعجبتم » ، لكن ساعة أن يجىء بهمزة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أى أنه يقول : أكذَّبْتُم بى ، وعجبتم من أن الله أرسل على لسانى « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأن الشىء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجرى على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .

أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ١ ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن « الذكر » قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [سورة الأنبياء]

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [سورة الأنبياء]

إذن فالمراد بالذكر - أيضاً - كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩١) ﴾ [سورة المائدة]

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم فى منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾
[سورة النور]

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عبادة ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[سورة النحل]

وفى آية أخرى :

﴿ .. إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾
[سورة العنكبوت]

وما دام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثان ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، هنا يقول الحق :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾
[سورة الأعراف]

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء علي غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ..﴿٢﴾ ﴾ [سورة ق]

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا فى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلحّ فى أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شىء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجىء بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟!! كان الواجب يقتضى ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصى والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ فى الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنّ العقل كاف ليدلنا - دون منهج - إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن فى حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسْن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك فى الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقى أن يفصل فى مسألة ملكية هذه القطعة من القماش مَن يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألاّ يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيىء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذى وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذى نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هى الفائدة فى أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم » تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة .

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هيبة ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شىء كان المنطق يقتضى ألا يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا فى قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لخزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب فى أمور الدنيا فكيف يكذب فى أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق: (على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون).

إذن فمهمته أن ينذر ، والأنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل: الإنذار وهو إخبار بما يسوؤك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيتبعك ويضايقك. والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم. وأن يبتعد عن الشيء المخيف.

وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان فى التقوى التى تؤدى إلى الرحمة.

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة.

وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لايقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال: إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدى الذين ليس لهم أتباع ولاهم من أصحاب الجاه والسلطان. ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [سورة الزخرف]

ولقد كان تمنيهم أن ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن فى ذاته منهج ومعجزة. ولم يتساءلوا: وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذى يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق:

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ .. (٢٧) ﴾ [سورة هود]

وهذه هى العظمة ؛ لأن أتباع محمد ﷺ لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقوتهم ، ويفرضوا الدين بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة فى البلاغ عن الله تأتى لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التى سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة هود]

ولم يجىء الحق هنا بسيرة الطوفان التى قال فيها فى موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَٰبَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة القمر]

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهى أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا .. ﴿٦٤﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

وكانت هذه أول حدث عقابى فى تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا فى حرب أو صراع ، والسماء هى التى

تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .

وفي تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتي بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عَمِه وأعْمَهُ ، والعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر . . أي ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . فبعد أن جاء بنوح يأتي بهود .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ ﴾

وساعة ما تسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أي أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعرابي « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله في الآية السابقة : (أرسلنا نوحا) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. وكلمة « أخاهم » تُشْعِرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطي الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبي عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأي يقول : إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأنّ

الأخوة نوعان : أخوّة فى الأب القريب ، أو أخوّة فى الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإمّا أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أى إخوتى أنت ؟!

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة ـ أى أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة ـ والله لأكونن أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وهنا « قال » فقط من غير الفاء ؛ وجاء فى قول نوح: « فقال » . وهذه دقة الأداء لنتنبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ « فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تقتضى التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن فى مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أوثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى فى سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتى فى الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح فى قوله الحق :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًّا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفى مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أفلا تتقون ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فى هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفى قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَـٰلَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ،وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أى يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وفى هذا القول نفى للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهى قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال فى قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ،وقال هنا فى عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ فى قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًّا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن فى حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه فى دعوتهم إلى الإيمان كماكان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال فى قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لنرتدع ونتقى ، لِكى نُرحم ، إذن فحين يأتى بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقى وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلّغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتتكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل في اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكنا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود: « وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذى أخبر به قادر على إنفاذه فى أى وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذى وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أى التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لابد أن له شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الألهة ، وهل لها مسميات حقيقية لِتُعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم فى حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أى ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون فى الجاهلية إلهاً باسم « العزى » ، وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيوما على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أى الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضى ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

و « أتى » فعل ماض ،وفى الظاهر أنه يناقض قوله :﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذى أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

أما هنا فى مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أو دعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًّا فكذبوه وازدادوا عتوًّا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فزعوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذي كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة في هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا في أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فيّ . وأخذ يفكر في الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل في ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أي ادعو الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهي الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء. فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها :«قيل» سوف تعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلا ولكن سياقه يوحي بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربي فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعاني . والمثال على ذلك في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا فى قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه فى القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هى الدليل على الصدق فى البلاغ عن الله ، وهى الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً فى دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك فى الجبل اسمها « الكاثبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هى عشراء كالبخت ـ أحسن أنواع الإبل ـ ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك فى أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْرَاء ـ أى كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهى ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم فى الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم فى الآبار .

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أى لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهى كمية من المياه كانت تكفى كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التى شربتها فى ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذى يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذى ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر فى الصيف تسكن الناقة فى المشارف العالية ، وبقية النوق تنزل فى الأرض الوطيئة ، وحين يأتى الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة فى اختيار المكان الذى تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين فى المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أُحَيْمر ثمود : واسمه قُدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبى أن العذاب قادم ، ففى اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودّة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكنّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمرثمود الناقة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهى بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم فى الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذى لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين فى العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة فى الجبل فهى فرصة لأن يتأمل عظمة الحق فى تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهى بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله - كما عرفنا - هى نعمه التى لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد فى الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين - لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر - قال هؤلاء الملأ من المستكبرين لمَن آمن من المستضعفين :

﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق :

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه بالعمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

و« الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبي مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهي خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل في قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هي الهزة التي تحدث رجة في المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . في قوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾ [سورة الحاقة]

والتى أصبحوا من بعدها «جاثمين» ، وهو التعبير الدقيق الذى يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول : «انسخطوا على هيئاتهم» .

«فالجاثم» هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩ ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد فى ورطة فيقول له صديقه : لاأملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : «ياما نصحتك» . وأنت تتكلم لكى تعطى لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم فى قليب بدر ، وقال ﷺ : ياأهل القليب ، يافلان ، يافلان ، يافلان ، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ، فقال الصحابة :

- أوتكلمهم يارسول الله وقد جيَّفوا . قال : والله ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له :« بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً